العزيزة

للكاتب الروسي انطون تشيكوف

بقلم الأستاذ حسني محمود جمعة

كانت تجلس أولينكا ابنة بليميانيكوف الموظف المحال على المعاش في حديقة منزلها وهي غارقة في التفكير

كان الجو حاراً والذباب مزعجاً ولكن كان يريح الإنسان أنه يشعر بقرب حلول المساء؛ وراحت تتجمع في الشرق سحب محملة بالأمطار جعلت الهواء كثيفاً مملوءاً بالرطوبة. وهناك وقف في وسط الحديقة ذلك الفتى « كوكين » مدير المسرح الطلق الهواء الذي يسمونه التيفولي

وهو يقيم في المنزل نفسه. وقال يائساً وهو يتأمل صفحة السكون : « ستمطر السماء ثانية . المطر كل يوم. إن الطبيعة تريد دماري . سوف أشنق نفسي . إنه الهلاك . خسائر فادحة كل يوم »

ثم لوح بيده ومضى يوجه حديثه إلى أولنكا : « إليك الحياة التي نحياها يا أولنكا بليميا نيكوف أليست هذه الحالة كافية لأن تجعلنا نجأر بالشكوى؟ إن إنساناً يعمل كل ما تسعه الطاقة ويجهد نفسه غاية الجهد ويقضي الليل ساهد الطرف وهو يكد ذهنه باحثاً عن خير الوسائل للإتقان ثم ماذا يكون جزاءه ؟

أول ما نصطدم به جمهور جاهل غبي . إني أقدم لهم أحسن الروايات وممثلين من الدرجة الأولى ولكن أتحسبين أن هذا هو ما يطلبونه ؟ إنهم لا يتذوقون الفن الصحيح بل يودون مهرجاً ويرغبون متعة رخيصة . ثم هذا الطقس اللعون أيضاً . إنها لا تمطر إلا مساء وقد بدأت هذه الحال في العاشر من مايو وظلت هكذا في مايو ويونيو . هذا مخيف في الوقت الذي لا يقبل فيه الجمهور على مسرحي . مطلوب مني أن أدفع الإيجار ومرتبات الممثلين »

وتجمعت السحب في مساء اليوم التالي فقال كوكين وهو يضحك ضحكة عصبية : « فلتمطري أيتها السماء ، فيضي على الحديقة ، أغرقيني . تباً لهذا الحظ العاثر في الدنيا والآخرة . فليشنقني الممثلون وليذهبوا بي إلى السجن أو إلى سيبيريا أو إلى ساحة الإعدام . ها . ها . ها »

ثم كان اليوم التالي والحال لا يتبدل

كانت أولنكا تصغي إلى كوكين في صمت حزين بل كانت تتبادر الدموع إلى مآقيها. وقد لمست هذه المتاعب وتراً حساساً في نفسها مما جعلها تغرم به

لقد كان رجلاً نحيلاً ضئيلاً ذا وجه أصفر تهفو على جبهته خصلات من الشعر، وإذا تحدث ففي صوت موسيقي رفيع فيتحرك فمه من جهة جانبية واحدة. وكانت تلوح على محياه دائماً علامات اليأس إلا أنه برغم هذا أثر في نفسها تأثيراً بيناً

إنها كانت ترغب دائماً أن تحب إنساناً ما ولا يمكنها أن تحيا بغير الحب

في صغرها أحبت أباها الذي يجلس الآن في غرفة مظلمة يتنفس في عسر

ثم أحبت خالتها التي كانت تزورهم العام بعد

العام . ولما كانت فى المدرسة أحبت معلمة اللغة الفرنسية . هى فتاة طريفة رقيقة القلب سريعة التأثر ذات عينين وديعتين وصحة جيدة ، وكان المتحدث إليها يقول فى نفسه حينما يلمح منها خدين فيهما حمرة وردية فاتنة ورقبة بيضاء ناصعة وابتسامة بريئة ساذجة: (لا بأس بها) بينما كانت النساء إذا ماجلسن إليها يبادلنها الأحاديث لا تملك الواحدة منهن نفسها من القبض على يدها فى منتصف الحديث ، وتقول فى غبطة لطيفة: (أيتها العزيزة). لقد كان المنزل الذى تقطنه والذى تمتلكه بطريق الوصية عن والدها يقع فى أقصى المدينة بالقرب من مسرح التيفولى فكانت تستمع فى الأمسيات والليالى أنغام الفرقة الموسيقية وأزيز الألعاب النارية فتقول فى نفسها إن هذه الأصوات إنما هى صوت كوكين فى عراكه مع القدر أو سخطه على ذلك العدو الألد ، ألا وهو جمهور النظارة الجاهل . إنها كانت تحس برعشة مريحة تعتلج فى صدرها. وضعفت رغبتها فى النوم . وكانت تظل ساهرة تنتظر عودته إلى المنزل فى الصباح المبكر فتطرق نافذة غرفتها طرقات رقيقة ولا يبدو منها من وراء الزجاج غير رأسها وجزء من كتفها فتحييه بابتسامة عذبة . عرض عليها الزواج فقبلت . وحينما أصبح من حقه أن يشاهدها عن كثب ورأى منها رقبة عاجية وكتفين جميلتين أحاطها بذراعيه وهو يقول : (أيتها العزيزة)

لقد كان سعيداً ؛ إلا أن السماء ظلت تمطر نهاراً وليلاً يوم الزفاف فجعلته حزين النفس تعلو صفحة وجهه علامات اليأس

عاشا معاً سعيدين ، واعتادت أن تجلس فى مكتبه لتدير شئون المسرح: تدون الحساب وتدفع الأجور ، وكان خداها المتوردان وابتساماتها المضيئة العذبة الساذجة تتراءى خلف نافذتي المكتب أو فى مشرب المسرح ، أو وراء الكواليس ، وكانت إذا تحدثت إلى صاحباتها تقول إن المسرح أهم شىء فى الحياة؛ وإن الرواية الدرام وحدها هى سبيل المسرة والتثقيف إذ تتجمع فيها معانى الإنسانية .

ثم تستدرك فى حديثها وتقول : ولكن هل تظنين أن الجمهور يعقل هذا ؟ إنهم لا يريدون إلا التهريج. لقد عرضنا أمس قصة (فاوست) فكانت جميع المقاصير خالية ، فلو أن كوكين وأنا قدمنا للجمهور بضاعة رخيصة فإنى أوكد لك أن المسرح يمتلىء على سعته . غداً سيقدم كوكين وأنا رواية (أورفياس فى الجحيم) فنرجو تشريفك

وكان كلما قال كوكين شيئاً عن المسرح وعن الممثلين رددته أولينكا وأعادته؛ فهى تحقد على الجماهير لأنه يحقد على الجماهير ، وهى تحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن لأنه يحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن. وكانت تشترك فى البروفات وتصلح للممثلين أخطاءهم وتراقب الموسيقيين، وتنطلق إلى مكتب الجريدة المحلية وهى تبكى لأنها اطلعت على نقد قاس فيها موجه إلى مسرحها فتقابل المحرر وتصحح له الوقائع

كان الممثلون يحبونها وأطلقوا عليها (كوكين دانا) أو (العزيزة) وكانت تحزن لحزنهم وتقرضهم مبالغ صغيرة. وطالما خدعوها. إلا أنها لم تكن تذرف غير دموع قليلة فيما بينها وبين نفسها فى خفية من زوجها

ومضى الشتاء على ما يرام ثم استأجروا مسرحاً فى المدينة إلا أنهم آجروه لفرقة روسية صغيرة. ومضت الأيام فاكتئبت أولنكا لحماً وكانت تخطر سعيدة

راضية، وأما كوكين فقد زاد نحافة واصفراراً، وكان دائم الشكوى للخسائر الفادحة ولو أنه لم يكن سيئ الحظ فى الشتاء

وكانت تناوله قدحاً من الشاى إذا أصابه السعال أثناء الليل أو تدلكه بماء الكولونيا وتلفه فى أغطية من الصوف ثم تقول له فى إخلاص عميق وهى تعبث بشعره: (ما أعزك عندى). ورحل يوماً إلى موسكو ليجمع فرقة جديدة فلم يطرق النوم أجفانها لأنه بعيد عنها. وكانت تجلس طيلة الليل قبالة نافذتها تحصى النجوم فكانت شبيهة بالدجاج التى تستيقظ بالليل وهى تصيح فى قلق واضطراب لأن الديك لم يكن فى عشته

بنى كوكين فى موسكو مرغماً فأرسل إليها يقول إنه سيعود فى عيد الفصح، ثم أشار عليها ببعض تعليمات خاصة بالتيفولى

ولكن فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد السابق للعيد بلغ سمعها طرق عنيف على الباب كأنما أحد يطرق برميلاً. فذهبت الخادم فى عيون ناعسة وقدم عارية وهى تجرى لتفتح الباب وصاح من الخارج صوت ضخم يقول:

أرجو فتح الباب فإن معى برقية. كثيراً ما تناولت أولنكا من زوجها برقيات ولكن فى هذه المرة شملها سكون وفزع. ثم فتحت البرقية بأنامل مرتعشة فإذا بها تتلو: (مات إيفان كوكين اليوم فجأة. أنا فى انتظار الإرشادات المتعلقة بالجنازة)

وكان مرسل التلغراف مدير المسرح

وبكت أولنكا ما شاء لها البكاء وكانت تقول: آه يا عزيزى كوكين يا جوهرتى المحبوبة. لماذا ألقى بك القدر فى طريق حياتى، ولماذا عرفتك وأحببتك؟ إن عزيزتك أولنكا الكسيرة الفؤاد أصبحت وحيدة الآن بدونك

لقد كانت الجنازة فى يوم الثلاثاء فى موسكو وعادت أولنكا إلى المنزل يوم الأربعاء. وما إن بلغت غرفتها حتى ألقت بنفسها على فراشها ومضت تنتحب فى صوت مرتفع بلغ رنينه أسماع الجيران

فقالوا: مسكينة هذه العزيزة أولينكا! ماذا يكون مصيرها؟

وانقضت ثلاثة شهور فلاقت أولينكا وهى عائدة من الكنيسة حزينة كئيبة جاراً لها يدعى فاسيلى أندريتش بستوفالوف كان يعود هو أيضاً من الكنيسة، فسار بجانبها، وهو مدير محل بابا كيت تاجر الخشب. كان يضع على رأسه قبعة من الخوص ويرتدى بدلة بيضاء، وتحيط بمعصمه ساعة ذهبية فكان أشبه بسيد محترم منه برجل تاجر. قال لها فى عطف ظاهر:

إن كل شىء يا أولينكا سيميانوفنا يسير إلى أجل محتوم، وإن كل عزيز من أعزائنا لا يخطفه الموت إلا بإرادة من الله فيجب أن نستعين بالصبر ونحتمل فى خضوع

وبعد أن أوصل أولينكا إلى باب حديقتها ودعها ومضى

كانت تستمع إلى نغمة صوته الجليل كل يوم. وكانت كلما أرخت أجفانها وترامت لها لحيته السوداء أعجبت به الإعجاب كله كما إنها أثرت فى نفسه. وما هى إلا أيام قليلة حتى زارتها سيدة عجوز لا تعرفها إلا معرفة بسيطة

جلست العجوز وشربت القهوة ثم تحدثت عن فاسيلى وقالت عنه إنه أحسن رجل يمكن

أن يعتمد عليه وإن أية فتاة لتود الاقتران به

وبعد ثلاثة أيام أقبل فاسيلى بشخصه . لم يبق طويلاً ولم يتحدث طويلاً بل عشر دقائق فقط ولكن بعد أن ودعها شعرت أولينكا أنها تحبه . تحبه جداً . حتى إنها ظلت الليل كله ساهرة وقد انتابها الحمى. وفى الصباح أرسلت فى طلب السيدة العجوز ثم انعقد القران

وكانا سعيدين بهذا الزواج

كان يجلس فى مكتبه حتى ميعاد الغداء ثم يمضى بعد ذلك إلى أعماله الخارجية فكانت أولينكا تحل محله فى المكتب تقيد الحساب وتنظم الطلبات . وكانت تتحدث إلى العملاء وإلى الأصدقاء وتقول إن سعر الخشب يزداد ارتفاعاً كل عام فقد ارتفعت الأسعار عشرين فى المائة . ولكننا مع ذلك نبيع ؛ ولذا فإن فاسيتشكا (زوجى) يجب أن يسافر إلى مقاطعة موجيليف ليستورد الخشب . ويخال السامع أنها قضت فى تجارة الخشب أجيالاً وأجيالاً وأن أهم شىء عندها هو الخشب

وكانت تنطق الألفاظ فى نغمة مؤثرة أمثال : السويد . والزان . والورينه . واللوح . والورقة وغيرها

وكانت إذا ما أقبل الليل واستقبلت سلطان الكرى تحلم بجبال من الألواح والكتل وعربات ملئية بالأخشاب . ولقد حلمت مرة أن قطعاً ضخمة من الخشب عرضها ست بوصات وطولها أربعون قدماً واقفة على أطرافها؛ وكانت تسير فى المخزن أشبه بفرقة حربية ثم تنبسط على الأرض مستلقية الواحدة فوق الأخرى فى كوم كبير مرتفع

وكانت أولينكا أثناء الحلم تصيح وتتكلم فكان يقول لها زوجها : أولينكا أيتها العزيزة ما بك؟ تنبهى

كانت أفكارها هى نفس أفكار زوجها

إذا ما قال بأن جو الغرفة حار أو أن العمل فى تأخر فإنها كانت تنحو نحوه فى التفكير

لم يكن زوجها ليهتم بوسائل التسلية؛ وكان يقضى أيام الأجازات فى المنزل فكانت تفعل فعله

وكان يقول لها أصدقاؤها :

— إنك دائماً إما فى المنزل أو فى المكتب . يجب أن تذهبى أيتها العزيزة إلى المسرح أو إلى الملعب (السرك)

فكانت تجيبهم :

— ليس لدينا أنا وفاسيلى وقتاً للذهاب إلى المسرح . هذا عبث . ما نفع المسارح ؟

وكانا يذهبان سوياً إلى الكنيسة فى أيام الأجازات ثم يعودان إلى المنزل متأبطاً أحدهما ذراع الآخر وهما يبتسمان بعضهما لبعض . وكانت ترفرف ملائكة السعادة على رأسيهما . ثم إذا جلسا فى المنزل تناولا الشاى والحلوى والمربى وأصنافاً أخرى ، وكانت تفوح من حديقة المنزل فى الساعة الثانية عشرة من كل يوم رائحة الحساء والضأن أو الطيور . وأما فى أيام الاعياد فكانا يأكلان السمك وكان يحس المار بالمنزل بجوعة يسيل لعابها . وأما فى مكتب العمل فإنهما كانا يقدمان الشاى للزبائن والبسكوت ، وكانا يذهبان مرة فى الأسبوع إلى الحمامات العامة ثم يعودان أدراجهما وهما محمرا البشرة

واعتادت أولينكا أن تقول لمن تعرفهم من الناس :

— نعم ليس لدينا ما نشكو منه . الحمد لله . إنى أود أن يكون كل إنسان مثلى ومثل فاسيلى

وحينما سافر فاسيلى ليشترى خشباً من مقاطعة

موجيلف أحست أولينكا بأنها افتقدته وظلت متيقظة بل كانت تبكي

وكان يسكن في منزلهم جراح بيطري صغير السن يعمل في الجيش اسمه سمير نين اعتاد أن يأتي في المساء يتحدث إليها. وكان في ذلك شيء من الترفيه والتسلية في غيبة زوجها ، وطالما سألته عن شؤونه الداخلية الخاصة فعلمت أنه متزوج وأن له غلاماً وأنه افترق عن زوجته لأنها لم تكن مخلصة له فهو الآن يكرهها واعتاد أن يرسل إليها أربعين روبية في الشهر نفقة للطفل . فلما سمعت أولينكا هذه الأنباء تنهدت وهزت رأسها وهي حزينة من أجله

قالت له وهي تقوده إلى الباب الخارجي مضيئة السلم بشمعة تحملها في يدها :

— حسن . الله معك . شكراً لك على زيارتك للترفيه عني . الله يرعاك ويمنحك الصحة

ثم إذا كان على وشك الرحيل فإنها تقول :

— خير لك يا فلادين بلانويتشي أن تعيش مع زوجتك واعف عنها من أجل الطفل حتى لا يفهم الغلام شيئاً

ولما عاد زوجها حدثته عن الطبيب البيطري وعن تعاسته المنزلية فيشترك الاثنان في التنهد وهز الرؤوس حزناً على الغلام الذي فقد رعاية أبيه. ثم تتحد خواطرهما فيذهبان إلى تمثال المسيح وبطأطئان الرأس أمامه طالبين من المولى أن يمنحهما أطفالا

واستمرت هذه الحياة السعيدة ست سنوات يغمرها الحب والانسجام

ولكن ...

بعد أن شرب فاسيلي قدحاً من الشاي في يوم من أيام الشتاء في مكتبه ، خرج عاري الرأس في الهواء في شأن من شؤون العمل فأصيب بلفحة برد ومرض

عاده أمهر الأطباء ولكن المرض كان غلاباً ، فما هي إلا شهور أربعة حتى واروه التراب ، وعادت أولينكا أرملة للمرة الثانية وهي تبكيه في مرارة :

— ليس لي من سند وقد فقدتك إلى الأبد

آه يا عزيزي. كيف يمكنني أن أحيا بدونك؟

ستكون حياتي شقية بائسة

يا للشقاء ! ...

هل يعيش أطيب الناس قلباً في هذه الحياة الجدباء المنفردة على هذه الحال ؟

أهملت أولينكا ارتداء القفاز والقبعة وغير ذلك من الثياب اللامعة الفخمة الأنيقة ، ولم تكن تلتفت إلا برداء أسود ، ولم تكن تخرج من المنزل إلا إلى الكنيسة أو لزيارة قبر زوجها . وكانت أشبه براهبة

وبعد مضي ستة شهور فتحت النوافذ المغلقة ، وكان يشاهدها الجيران في بعض الأحيان ذاهبة إلى السوق مع خادمتها لتبتاع حاجياتها المنزلية ، ولم يكونوا يعلمون عن أحوالها الداخلية شيئاً

إلا أنهم كانوا يرونها تجلس في الحديقة لتشرب الشاي مع الطبيب البيطري الذي كان يقرأ لها الجرائد

وقد قالت يوماً لامرأة قابلتها بجوار مكتب البريد :

— لا توجد في المدينة رقابة صحية على الحيوانات. وهذا هو السبب في وجود الأنواع المختلفة من الأمراض المعدية ، وكثيراً ما نسمع أن أناساً أصيبوا بالعدوى من شرب اللبن ، أو انتقلت إليهم الأمراض من الخيل أو البقر .

إنه يجب العناية بأمراض الحيوان كما نهتم بأمراض الإنسان

وهى بهذا القول تعيد ما سمعته من الطبيب البيطرى ، وكانت أفكارها تتفق مع آرائه تماماً

إنها لم تكن تقدر أن تعيش سنة واحدة بدون أن تكون ذات صلة بإنسان ما ، فكانت سعيدة بهذا الجار ، ولم يظن أحد بها سوءاً لأنها كانت طبيعية فى جميع تصرفاتها ولم تكن تخفى شيئاً . وقد حدث أن أضاف الطبيب البيطرى بعضاً من أصدقائه فى الجيش ، فجلست أولينكا معهم لتسكب لهم الشاى ، وكانت تحدثهم أثناء ذلك عن الطاعون البقرى وعن بداية المرض وعن المجازر البلدية . وقد دهش الطبيب المسكين لهذا جميعه. فلما أن رحل الضيوف قبض على يدها وحدثها وهو غاضب :

— لقد نبهت عليك من قبل ألا تتحدثى عما لا تعرفينه وخصوصاً فى جمع من الأطباء البيطريين. أرجوك ألا تتدخلى فى مثل هذه الشؤون ... هذه حالة متعبة ...

فنظرت إليه فى حدقة متسعة وعجب بالغ وقالت :

— إذن فى أى موضوع أتحدث ؟

وتعانقه والعبرات تسيل على خديها راجية منه ألا يغضب ، وكانا سعيدين

ولكن السعادة لا تستمر طويلاً ، فقد رحل الطبيب البيطرى إلى غير عودة ، إذ نقل مع فرقته إلى مكان بعيد جداً ... إلى سيبريا

وأصبحت أولينكا وحيدة ، بل وحيدة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد مات والدها أيضاً وخلف كرسيه يعلوه الغبار وبجانبه ساق صناعية من الخشب

ونحل جسمها وأجهدتها السنون فلم يلتفت إليها الناس كسابق عهدهم ، ومضت الأيام الأولى السعيدة وتغيرت وجهة حياتها تماماً

إنها تجلس فى الحديقة وتسمع أصوات الموسيقى تلحنها فرقة التيفولى ، ولكن لا تهزها الأنغام الصادحة ولا يهمها شىء ما ، ولم تكن تفكر فى شىء ولا ترغب فى شىء ولا تحلم بشىء. إنها كانت تأكل وتشرب بطريقة آلية ...

إنه لم يكن لديها ، وهذه أسوأ حالة ، أية آراء أو خواطر من أى نوع كان

كانت تشاهد الحوادث تمر بها متتابعة وتفهم ما تسمع وتعى ما ترى ولكن كانت تعجز عن تكوين أى رأى ولم تدر فى أى موضوع تتحدث

ما أتعس ألا يكون للانسان خلجات نفسية أو خواطر ذهنية! إنك ترى الزجاجة مثلاً أو تشاهد المطر أو عابر سبيل فما معنى هذا ؟

ليس من الميسور الرد على هذا السؤال ولو دفع عن الإجابة ألف روبية

حينما كان يزاملها فى حياتها كوكين أو فاسيلى أو الطبيب البيطرى كان فى ميسور أولنكا أن تعبر عن خلجاتها بكل وضوح وفى كل موضوع وتبدى رأيها فى أية مسألة تريد. ولكن الآن أصبح رأسها خاوياً كقلبها وكحديقتها الجرداء .

ومضى الزمن واتسع العمران فى المدينة وامتد نطاقه وأصبح الطريق القفر شارعاً ممهداً وأقيم مكان التيفولى وموضع مخزن الأخشاب منازل وميادين

ما أسرع الزمن !

إلا منزل أولينكا فإنه ظل على حاله ، بل زاده كآبة كثرة الغبار على سطحه وميل جانب من جوانب عشة الدجاج ولون العدأ الذى يعلو القضبان الحديدية ونمو نباتات غريبة فى الحديقة المهملة . بل إن أولينكا قد شاخت هى أيضاً . وكانت تجلس

فى الحديقة صيفاً وهى خاوية الروح تملوها كآبة حزينة وصمت مرير

وأما فى الشتاء فكانت تقعد أمام نافذتها ناظرة إلى الثلج المتساقط

وفى الربيع كانت تتنفس عبير الأزهار أو تستمع إلى أجراس الكنائس فتعود إليها ذكريات الماضى فى صور زاهية الألوان وهزات فى الفؤاد وعبرات تملأ المآقى، ولكن هذه الانفعالات لم تكن تدوم غير لحظة ثم تعود إلى حالها من الخلو والصمت الساذج وعدم الاكتراث للحياة

ولم تكن تتأثر أولينكا للقطة السوداء (بريسكا) حينما كانت تقترب منها وتتمسح بها

لم تكن هذه طلبتها فى الحياة، إنها تريد حباً يقلب حياتها ويستغرق وجدانها بل كيانها جميعه روحاً وذهناً

حباً يجعل لها فى الحياة غرضاً ويمنحها تفكيراً ويسكب فى عروقها دماً حاراً

طالما صاحت بالقطة السوداء: إذهبى عنى فلست أريدك

وهكذا مضت الأيام وتعاقبت السنون فلا مرح ولا خاطر. كانت تقر جميع ما تقوله خادمتها مافرا

وفى يوم قائظ من أيام يوليو، وكان المساء قد أشرف على الكون، وكانت قطع من الماشية تعود أدراجها، وكانت الحديقة المهملة تملوها الكآبة

إذا بها تسمع طرقاً على الباب فذهبت أولينكا بنفسها لتفتح الباب. وقد كانت المفاجأة عنيفة حينما ألفت أمامها سميرنين الطبيب البيطرى وقد علاه الشيب وهو يرتدى ملابس المدنيين

حينذاك فقط تذكرت كل شىء فى الوجود فلم تملك نفسها وقد بكت وسقط رأسها على صدره ولم تنبس شفتاها بكلام ما، ولم تدر وهى غريقة فى فيض من العواطف أنها دخلت بزائرها إلى المنزل وأنهما جلسا يشربان الشاى

وإنما قالت أخيراً وهى ترتعش سعادة وسروراً:

— عزيزى فلاديمير، أى حظ سعيد أتى بك إلينا؟

فقال:

— إننى جئت للسكنى فى مدينتكم فقد استقلت من عملى وجئت لأجرب حظى فى الحياة مستقلاً، وقد أزف الوقت الذى يجب أن أهتم فيه بابنى. إنه قد أصبح غلاماً كبيراً وقد تراضيت مع زوجتى كما تعلمين

فسألت أولينكا:

— وأين هى؟

— إنها مع الغلام فى الفندق

فقالت أولينكا وهى متأثرة بالغ التأثر:

كيف يكون هذا؟

ألا يعجبكم منزلى لتسكنوا فيه. أستحلفكم أن تقطنوا معى فلن أطالبكم بأى أجر

أرجوك يا عزيزى فإنى أكون سعيدة فى معاشرتكم. ولما كان اليوم التالى إذا بالحيطان والسقوف قد ضربت بالألوان. ومضت أولينكا فى نشاط كبير تصدر الأوامر هنا وهناك، وكان يشع من عينيها بريق السعادة وتعلو وجهها ابتسامة حلوة، وكانت شبيهة بإنسان استيقظ بعد غفوة طويلة

وأقبلت زوجة الطبيب وهى نحيلة واضحة القسائم مقصوصة الشعر، وكان يصحبها ابنها ساشا وهو صبى فى العاشرة صغير الجرم إذا قيس بعمره له عينان زرقاوان وتنزقان فى الخدين

وما إن دخل الغلام فى الحديقة حتى راح يجرى

خلف القطة السوداء، ورنت فى الفضاء ضحكته الطفلة المحببة السعيدة وهو يوجه الحديث إلى أولينكا :

أهذه قطتك يا خالتى ؟

إذا أنجبت صغاراً فيجب أن تهدينى قطيطة منها فإن أمى تخاف الفيران

وتحدثت إليه أولينكا وأعطته الشاى وامتلأ قلبها غبطة وأحست فى صدرها بأحاسيس مختلفة نحو الصبى الصغير كأنما كان ابنها وفلذة كبدها

وكان إذا ما جلس إلى المائدة ليكتب واجباته المدرسية فى المساء راحت تراقبه بعين وديعة وعطف بالغ وتهمهم فى نفسها :

كم هو ظريف هذا الصبى العزيز إنه جوهرة نفيسة، ما أذكاه !

وكان يقرأ بصوت عال ويقول :

الجزيرة قطعة من الأرض محاطة بالمياه من جميع الجهات. فكانت تردد أولينكا قوله : (الجزيرة قطعة من الأرض ...)

وكانت هذه العبارة أول جملة وعتها بعد زمن طويل تقضى فى خمول وسنين طويلة مضت فى صمت قاس خال من الخواطر والآراء والعواطف ، وكأن هذا الغلام قد أوحى إليها بالكلام من جديد

إنها الآن أصبحت ذات أفكار مستقلة فكانت تجلس فى وقت العشاء مع عائلة ساشا وتقول : ما أصعب الدروس فى المدرسة العليا . إلا أن المدرسة العليا خير من مدارس التجارة ، إذ أن المتخرج فى المدرسة العليا يمكنه مزاولة مهن مختلفة : الطب والهندسة أو غيرها

ودخل ساشا المدرسة العليا ورحلت أمه لزيارة أختها فى هاركوف ولم تعد ، واعتاد والده أن يذهب كل يوم للتفتيش على المواشى، وكثيراً ما تغيب عن المنزل ثلاثة أيام كاملة ، وأحست أولينكا أن ساشا يكاد يكون كل مهملاً من والديه ، ولذلك فإنها أحاطته برعاية كبيرة وأفردت له غرفة خاصة فى منزلها .

صاحبها شاشا ستة شهور فى مسكن واحد ، واعتادت أولينكا أن تأتي إلى غرفته كل صباح فتراه نائماً نوماً عميقاً هادئاً واضعاً يده الصغيرة تحت خده وكان يؤلمها أن توقظه إلا أنها أخيراً تقول :

ساشنكا ، تيقظ أيها العزيز فقد أزف ميعاد المدرسة ، فكان يستيقظ فى الحال ويرتدى ملابسه ثم يصلى صلاته اليومية ثم يجلس لتناول طعام الإفطار ويشرب أثناء ذلك ثلاثة أقداح من الشاى ويأكل الخبز والفطائر

وكانت تنظر إليه أولينكا نظرها إلى إنسان مقبل على سفر طويل وتقول :

— إنك لم تحفظ درسك تماماً ... كم أن هذا يكدرنى . . . يجب أن تذاكر جيداً يا عزيزى وتطيع معلميك !

وكان يجيب ساشا :

— اتركينى !

ثم يترك المنزل ويسير فى الطريق متجهاً إلى المدرسة . وكان يبدو ضئيلاً وهو يحمل حقيبته على كتفه فتتبعه أولينكا عن كثب وهى صامتة وكانت تناديه : ساشنكا !

ثم تضع فى يده قطعة من الحلوى ، فإذا اقترب من شارع المدرسة وأحس فى نفسه الخجل من مصاحبة سيدة عجوز طويلة يلتفت إليها ويقول :

— يحسن بك أن تعودى يا خالتى وتدعينى أسير بقية الطريق وحدى !

فكانت تقف ساكنة وهى تراقبه حتى يخفيه باب المدرسة عن نظرها

لقد أحبته ولم يؤثر فى قلبها أى لون من ألوان الحب السابقة مثلما أثر فيه هذا الحب فإنه كان أعمقها أثراً ، ولم تخضع روحها من قبل لمثل هذا الشعور العنيف الذى لا غاية له

إن هذا الحب قد أحيا فى فؤادها جميع مشاعر الأمومة وغرائزها الهادئة

إنها كانت على استعداد لتضحية حياتها من أجل هـذا الصبى الجميل ذى الطاقية الواسعة . إنها تفتديه بروحها عن طيب خاطر

لماذا ؟ من يمكنه أن يقول لماذا

وبعد أن غاب ساشا عن بصرها رجعت أدراجها مرتاحة القلب هادئة النفس سعيدة بحبها له وقد عادت إلى وجهها نضرة الشباب ونفحة الصبا، وكان ينظر إليها الناس مسرورين قائلين :

ألا عمى صباحاً يا أولينكا سيميانوفنا! كيف حالك أيتهـا العزيزة ؟ وكانت تقول فى السوق حاكية : (إن الدروس فى المدرسة العليا صعبة للغاية . إنها كثيرة على الأفهام الصغيرة . أمس فى السنة الأولى كلفوه بأن يحفظ عن ظهر قلب خرافة كاملة وترجمة لاتينية ومعضلة حسابية . لا شك أن هذا كثير على ذهن طفل)

ثم تتحدث عن المعلمين والدروس والكتب المدرسية مرددة جميع ما سمعته من ساشا

وكانا يتناولان الغداء سوياً الساعة الثالثة ، وفى المساء كانا يجلسان لحفظ الدروس معاً بصوت مرتفع وحينما كانت تضمه فى الفراش فإنهـا كانت تقضى وقتاً طويلاً وهى تخط بيديها علامة الصليب ثم تتمتم دعواتها وصلواتها . وبعد ذلك تذهب إلى غرفتها ثم تنام وهى تحلم عن المستقبل فى صورة مبهمة: حينما ينتهى ساشا من دراساته ويصبح طبيباً أو مهندساً ، وحينما يمتلك منزلاً كبيراً فيه الخدم والعربات والخيول ، وحينما يتزوج ويكون له أولاد صغار .

ثم تترجرج فى عينيها المغمضتين عبرات تتساقط على خديها بينما القطة السوداء الناعسة تهمهم فى نومها ...

ويطرق الباب فجأة فتستيقظ أولينكا وهى تلهث فزعاً ويدق قلبها خوفاً، وتمضى دقيقة ثم يطرق الباب مرة ثانية فيمر برأسها خاطر يهزها هزاً عنيفاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم

لا شك أن الطارق يحمل برقية من هاركوف تطلب ابنها ... الرحمة بى يا إلـهى ... ثم تغرق فى يأس قاتل وتسير البرودة إلى رأسها ويديها وقدميها وتحس فى صميمها أنها أتعس امرأة فى الوجود ... ولكن إذا مضت دقيقة أخرى وسمعت الأصوات فإنها تتبين أن الطبيب البيطرى يعود الى المنزل من النادى

فتهمس فى نفسها : حسن . الحمد لك يارب

ثم يخف الحمل الثقيل عن قلبها شيئاً فشيئاً حتى تحس راحة تامة بعد قليل، فتقوم من فراشها وتسير على أطراف أصابعها إلى حجرة ساشا فتجده نائماً وهو يصيح فى نومه :

سأعطيكها . إذهب عنى . صه .

حنفى محمود محمد

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }